آه من النساء

تطاول بعض الكتاب على السيدات ونسبوا اليهن ما بانفسهم · واستبدوا بما كتبوه عنهن وقلّ من تصدى للردّ عليهم · ولطالما همت الحسناء بتفنيد تلك المزاعم لو لم ترَ الأحسن عدم الاعتداد بهم · الى ان رأينا في العدد الثامن عشر من رصيفتنا مرغريت الفرنساوية للسيو ابزيدور كريسو في الثغر ، مقالة بعنوان هذه السطور لكاتب تبرأت من سو يدائه الجريدة ولم تحتمل مسؤولية مقالته وانما نشرتها كأثر تاريخي لانها مجموع اقوال اخفى عليها الدهر فعفت اثارهـا ولم يبق منها الاّ الطلول البوالي · فكدنا نغضّ النظر عنها شأننا مع امثالها لولا انتساب ما فيها الى مشاهير قد يأخذ الناس اقوالهم على علاتها دون تمحيص · اي دون ان يفهموا المقصود منها والاحوال التي قيلت فيها والدواعي الباعثة عليها · ولذلك رأينا الردّ واجباً ولكن على ما قيل لا على القائل · لان المتباهي بشدة بغضه النساء والذي يرى الذّ شيء عنده اظهار رداءتهن لانهن على زعمه مخلوقات لشقائه — مثل هذا لا يردّ عليه

على اننا نحترم اراء الغير خصوصاً اذا كان حسن الاعتقاد باعثها وسموّ الاخلاص رائداً لها ولا ندّعي احتكار الحق فيه نقول بل نبدي الرأي مدعوماً بالبرهان ولا نخشى انتقاده ما زلنا نعتبر المنتقد مساعداً لنا في ابداء الحقيقة · فلو بحث المتأوّه من النساء بحثاً صحيحاً في اخلاقهنّ وقابل بين ما فيها من المحاسن والمساوئ ولم يدع للشخصيات مدخلاً في الامر اي انه لم يراع حاسياته في ما كتب ولا اندفع مع عواطفه المملوءة بغضا لهنّ كما صرّح في مقاله لما كان تعاضى بهذا المقدار عن فضائلهنّ واكتفى بسيئات قد تساوى فيها الجنسان · وكنا

وكنا نزلنا في ميدان البحث متعاونين واياه على التوصل الى نتيجة مرضية ولكنه اقتصر على وجهة واحدة نظر منها الى النساء بعين المقت وحتم حتماً صريحاً بانهن شريرات مضرات واستشهد باقوال افراد قد اشتهر معظمهم بشدة البغض لبنات حواء وعرفت اقوالهم بانها بنت الحدة والغضب قالوها في اوقات لا يؤاخذون بها عليها . ولذلك نكتفي فقط بذكر اقوالهم وبيان احوالهم للدلالة على بواعث ما قالوه مما عده المتأوه حججاً له هي بينها ترهات لا يقبلها عقل ولا يلتهي بها فكر

فمن يعتد بقول موليير — تعس من يثق بالنساء وان اشرفهن دائماً تضمر شراً وجنسهن موجود لاهلاك البشر وانه الى الابد يبتعد عن هذا الجنس ويسلمه بطيبة خاطر الى الشيطان — وهو قد ذاق من زوجته الامرين وعانى من شراسة اخلاقها ما لا يرجى منه غير مثل هذا الطعن لانه شاعر يراعي العواطف اكثر من الحقائق والقلب اكثر من العقل وشتم لم تعطف عليه حسناء ولا ابتسمت له سيدة

ومن يتخذ قول سليمان — المرأة امرّ من الموت) حجة . وهو المشهور بغزلياته الاثرية واعتباره المرأة الفاضلة اثمن ما في العالم

ومن يصغي لصراخ مثل ديوجينوس عندما رأى المرأة مشنوقة في الشجرة خلف بجيتران جميع الشجر حرية بهذا الثمر) وهو قد عاش سيفي البرميل متمرغاً بالاوحال والاقذار كالبهائم وصرف العمر مشعلاً سراجه ليلاً نهاراً باحثاً عن رجل حقيقي ولم يجد . لم يعاشر امرأة ولا درس نفس فتاة ولم ينظر الى الدنيا الا من وجهها الاسود . وبالطبع من لم ير رجلاً يرضيه لا يرَ امرأة . ولكن الذي صرف الاسكندر عنه لئلا يحجب عنه الشمس خرّ ساجداً عند اقدام لايس القرنثية مجداً جلفا والاهة

ومن يثق بقول كودريس — ان سمك البحر ونجوم السماء اقلّ من شرور المرأة) وهو آخر ملوك ايثنا القدماء ولمجرد وهم تخيل له سعى فقتل نفسه املاً بانتصار جيشه في محاربة الدوريين من ثلاثة الاف عام

ومن لا يتهكم على قول اوريبد — هائلة امواج البحر عند اشتداد النوء والنار عند احتدامها والفاقة عند تعدّد الحاجات ولكن مع ذلك لا شيء منها اشد هولاً من المرأة وهي التي لم يتح لمصوران يرسم التعاسة المتأتية منها ولا يوجد لفظ يؤدي بمعناها واذا قدّرنا انها صنع الالهة فلنعلم هذه بانها كانت المسبب لاكبر ويلات الناس) ومثله ميناندر القائل — ان البرّ والبحر يولدان عدداً لا يحصى من الحيوانات المفترسة · بيد ان المرأة هي اشدها افتراساً) وهزيود بقوله — ان النساء هنّ مجلبة الشؤم الى درجة ان اشرفهن يسبين مصائب ازواجهن) والثلاثة من شعراء اليونان الاقدمين وجدوا من اكثر من الفي سنة واراء الرجال في النساء معلومة احوالها في تلك الايام حتى ان فلاسفتهم كان يجهلون خفايا نفس المرأة الحقيقية ولا شك بان ما قالوه لم يكن الا صدى ما كانوا يرونه من نتائج سوء تربيتها وانحطاط اخلاقها لا حكماً عليها والا كيف نفسر قول ارسطو — كيف نحب عدة نساء وواحدة فقط تكفي لتسبب كل مصائب الانسانية) او قول شيشرون — لولا المرأة لتوصل الانسان الى مخاطبة الالهة) او قول جوفنال — اسهل عليك ان تشاهد بجمة سوداء من ان تجد امرأة فاضلة)ومثلهم اقول القديسين غريغوريوس وفبريانوس وبرنردس — ان المرأة الفاضلة اندر من الغراب الابيض) — ان معاشرة المرأة تسبب التعرض لكل انواع التجارب وخيالها يسبب الخطيئة وجوهرها يحتوي خاصة الموت وهي طاعون ووباء بل دمار خفي) — ان بعث الاموات اقرب من السلام الدائم مع النساء)

فهؤلاء الذين استشهد باقوالهم المتأوه من النساء فضلاً عن كونهم وجدوا في زمان كانت المرأة فيه باحط دركات الجهل والاستعباد ولم يكن الرجل ايضاً الا جاهلاً مستبداً فان احوالهم الشخصية كانت تؤثر على السنتهم فيتوهمون الحق في ما يقولون وما هم بالحق الا واصفون نتائج لا مقدمات واسباب لا مسببات

ومن يطالع اقوالهم يرى من خلالها اثار السوداء والعداء وتعمد الطعن والتشفي . ولا برهان يؤيدونها به الا عواطفهم كأنهم اعداء محاربون

فلو قالوا ان المرأة كالرجل مزيج من الخير والشر مثله عرضة لاقتباس الامرين . وبحثوا في الموضوع اخذاً وردّاً سلباً وايجاباً . واستطلعوا اي الجهتين هي اميل ثم ابدوا ما تراءى لهم لكانت حججهم تحتمل النقد . اما وقد اقتصروا على جهة واحدة ولم يبصروا من المرأة الا السيئات مجسمة كثيراً فحسبنا ذكر اقوالهم لدلالة على تطرف جامعها وانها ليست مما يستوجب البحث .

ولو عادوا الينا اليوم وراوا ما تراه من مآثر النساء وفضائلهن او بالاحرى لو امعنوا بدرس معاصراتهم ودققوا باستقصاء اسباب مفاسدهن لانكروا اقوالهم مقرّين باغلاطهم بلا اشكال ونحن لو شئنا دحض اقوالهم بما يناقضها من اقوال الحكماء والابرار لملأنا صفحات لا تحصى

وحسب الكاتب ان ينتبه الى ان المرأة هي امه واخته وزوجته . والاستعانة باقوال الغير للطعن بها مضرّ به . اما اذا كان يطلب الشهرة من كسر مزراب العين او الانتقام الشخصي من عموم الجنس فالشفقة عليه اولى لا سيما اذا لائمه قول بيرون اتخذه ختاماً لمجموعته من انه رأى النساء في غضبهن والامواج في هياجها فرثى لحال المحيط اكثر من رجال البحر